كمال الحديثي

سندباد الرحلة الثامنة

لم أطف أسواق بغداد
ولا عانقت أبواب التجار
لم يراهق خاطري المكدود
همّ بصبيّه
ونثيث الأرج المسفوح
في ليل قيان ومزاهر
خنقتني رنة الأعواد في ليل الخطايا
وتطلّعت إلى كل الكوى
أبحث عن نفسي
وعن حلمي بعيدا
عن انين البائعين الجرح
عن ذل الضحايا
فأنا آكل عمري كل يوم
وأنا أشرب من ثدي الرّبا
كل صباح ومساء
أيّ نار احرقت كل دمائي
فأنا، من بعضها، كأس على ثغر الرياء
وأنا من بعضها بقيا دخان ورماد
لم يعد في وهج الابريز
ما يغري، فقد كلّت عيوني
غلقت اوردتي
بالسأم المطبق في كل دروبي
طالما دثرني الديباج
ضمخّت جبيني
ولعمدت ثيابي
بفتيت المسك، علقت الدراري
فوق جيد
وعلى صدر غرير
علّها تفتح لي بابا
إلى صيد جديد
أيّا همّ صغير؟!
تخمت كل خزاناتي
فما أرسلت كفّي
على العتمة إلا صادتا
عقدا وزنارا وتاجا
أتراني كنت طفت البحر
منشّداً باعنان السماء!
حين يغلي
موجه المجنون حقدا
ثم ينشّد إلى القعر.. إلى كل قرار
حين تنبثّ أكف الموت..
رايات على كل الصوارى
وعلى بقيا شراع
مزقته الريح
فانساق إلى أرض موات
بعد حين
أترى كنت شربت الكأس
في صحوي وسكري؟!
عندما تنطلق الشمس لهيبا
في المياه الزرق
ألوان حبور وبشائر
عندما تنزلق الشمس
وراء الأفق
في وجه غريب
أكلته ذلة اليتم
وخوف القاتل القابع
في الليل الرهيب أركب الأهوال
أرتاد جبال النار،
أعشاش النسور
باحثا عن أيّا شيء
عن الغيلان
عن طير عجيب
حين يمسي
فهو في العش جناح وهديل
وهو إذ يصبح
ثغر وقوام وجديل
باحثا عن أرج المسك
وبغداد مسيل من طيوب
ربما عن باقة النّد
. وبغداد على الدنيا طيوف ومباخر
أترى عن جوهر
والماس منقوش بأبواب القصور؟!
أيّ شيء قادني
للجوع، للموت، لدرب الجنّ
في كل ارتحال؟
أعلن التوبة في كل ارتحال
وأصلّي
حين تشتدّ بيَ المحنة.. أدعو..
كنت أغلو في نذوري..
قسماً لو عدت ما غادرت بيتي
ولأنفقت على الايتام
حصّنت العذارى
ولأعتقت الجواري
قسماً لو عدت ما يممت بحرا
ولغلقّت على الدنيا دروبي
ربما في رحلة تتلو بوارى!
ربما ينطفىء الوهج الذي
عشت به في لحظة
أهوي وفي طرفة عين
حيث لا مأوى من الحيتان
لا منجاة من كفّ الشرور
وإذا ما عدت
أنساني التلاقي
وعناق الكأس والعود
وأصحابي على كل طريق
والأحاديث التي
تروى فتزهيني
بأكليل انتصار
وخزاناتي التي
ما كنت ألقاها
سوى كهف
على ما زدت أكداسا

دعا هل من مزيد؟!
فإذا ما عدت بالمال الوفير
وإذا ما عدت بالصيت وبالجاه الكبير
نسيت كل متاهاتي
وطيف الموت في أنياب غول
نسي الخوف
وأيام عذاباتي
مع الجبّ وليل وعظام
شدّني الشوق
إلى مرتحل يأتي
إلى دنيا البحور
رحلة أخرى!
فمن يدري؟
عسى أرجع!
لي كلّ الطلاسم
وجنود الجنّ يصطفون في بابي
يلبّون كما ادعو
فما يأمر أو ينهى
ببغداد، ولا في الأرض غيري
رحلة أخرى فمن يدري؟
عسى أرجع ربّا للسرير؟!
فتزوّدت من الأصحاب في كل نهاري
وقطفت الليل
في بغداد من درب لدرب
انتقي من حلل الشام
ومن مصر
ومن فيء النخيل
وعلى عينيّ تصطف المرايا
يتجوّلن بأرض الهند والصين
وفي آخر بحر وجزيرة
ثم أنساق مع الحلم
ومن أمر إلى أمر خطير
وتفحّصت شراعي
ثم كانت رحلتي همّا جديدا
فوق ما حمّلت
واشتدّ دعائي
عندما تلقي بي المحنة
في كف الهلاك
كنت ادعو
كنت أغلو بنذوري
قسما لو عدت ما يممت بحرا
هذه المرة لن أبحر إلا بثيابي
وأحاديثي التي جمّعتها عبر سفاري
وأغانيّ التي
غنيت في كل قفول
وسألقي..
بثياب التاجر المغرور في قعر محيط
هذه المرة لن أبحر إلا بسراجي وكتابي
وبزادي لليالي السبع
أو عشر.. لشهر
وعلى ما شاءت الريح
وما قدّر في سفري القديم
لم أعد أقوى
على مرتحل صعب
على طول فراق
فأنا آكل عمري كلّ يوم..
كلّ يوم..
ينطفي نجم بأفقي
رحلة أخرى
وقد تأتي ختاما لمطافي..
فمدى الظلمة يزداد
وما عندي، سوى لمح شحيح من ضياء
ربما جئت باصحابي
بأشياء علقنا
حين كنا صبية.. كنا شبابا
نملأ الحيّ ضجيجا
نفعم الأدنين والأقصين
حبا ورجاءا
فعلى اسم الله مجراها ومرساها
على اسم الله
ما يممت من قصد
على اسم الله من شرق وغرب
هذه الرحلة لى وحدي
فيا ريح، ويا شمس، ويا بحر
أعينيني..
فما عاد لعمري
غيرها والموت يلقي
كل يوم في طريقي
خنجرا يستلّ شريانا جديدا
مخلبا ينهش عيني وجبيني
مرة واحدة في العمر
أرتاد بحور الأرض من غير قيود
مرة واحدة
يعتقني عشقي
من الأعباء
من أسر نقودي
مرة واحدة اقتصّ من كل سنيني
أرتقي فيها
إلى كلّ دماء في وريدي
أيّ صبح
يملأ الأعين بالصحو صفاءا!
أيّ ليل
يفعم النفس جلالا!
أيّا ريح تواتي؟
فشراعي يتهادى
يلثم الموج على دلّ حبيب
هذه الرحلة لي وحدي
فيا أيام طيبي
ليس للقرصانَ من درب الينا
ليس للحيتان
قد ماتت وما نخشى
من الأموات في بحر بعيد؟
هذه الرحلة لي وحدي
ولي وحدي
فيا ربّاه ما للبحر يشتدّ
وما للريح تجري
في خيول الموج
وما للجبل المسحور
قد جرّ شراعي؟!
ولقد ألقي به بعض حطام
مِزَقاً لا تُشبع الحوت
فمن أين صحابي؟
أين أشيائي
أحاديثي التي جمّعتها عبر سفارى؟
وأغانيّ التي غنيت
في كل قفول!!
أأغنّي مرة أخرى بها عند قفولي؟!
قسماً لو عدت ما يممت بحرا
ولعلّقت حروفا من دمي
تصرخ في أبواب بغداد
حذار!
قسما، والحوت، والأعصار، والبحر
فللقاع مآلي

بغداد